موسيقى الشعوب

إن ولادة الموسيقى ترجع في الأصل إلى علاقة الإنسان بالطبيعة التي يعيش ويتأثر فيها، فأصوات الطيور، وجلجلة الأمطار، وصوت الرياح، وأصوات الحيوانات، وأمواج البحر أثناء ارتطامها مع الشاطئ، وخرير جريان مياه الأنهار وغيرها من أصوات الطبيعة، كل هذا إذا ما حضرت روح المكان أكسبته لوحة سحرية تجسد الأفكار. إن تلك الأصوات المتناغمة نحو عالم الخيال المتجسد الذي يضفي عليك الكثير من الاسترخاء والشعور بالهدوء يتلمس أجمل المقطوعات عزفاً، إنها الطبيعة وسحرها الخلاب الممتزج بالإبداع البشري.

تفاعل الإنسان مع المكان وتأثره بطبيعته وتضاريسه أدى إلى تنوع الألحان والموسيقى. فنجد الألحان والأهازيج المنتجة في المناطق الجبلية تختلف طبيعتها عن تلك المنتجة في المناطق الصحراوية وكذلك مناطق الساحل أو البحرية. وهذا ينعكس على الوطن العربي حيث تنوع التضاريس على سبيل المثال، فالألحان الفلكلورية في مملكتنا الحبيبة تختلف جملها الموسيقية والإيقاعية حسب المكان والتضاريس، كما أنها تأثرت بالأنماط الموسيقية للأقاليم المجاورة. مثلاً منطقة الأحساء بعبقها التاريخي وتنوع التضاريس الجغرافية فيها، نجد البحر والصحراء بالإضافة إلى مزارعها ومياهها الجميلة، مما ساهم في تنوع ألحانها الفلكلورية والإيقاعية والنغمية وكذلك منطقة جازان الساحلية الجبلية.

كما ذكرنا أن لكل مكان ألحانه وأهازيجه وطرقه اللحنية التي استلهمها واكتسبها من محاكاته للطبيعة، فمن الألحان ما استخدم -قديماً- في التقرب إلى الإله وللطقوس الدينية، ومنها ما كان يستخدم أثناء البناء أو الزراعة أو الصيد وغيرها. هنا تكونت موسيقى الشعوب أو الفلكلور التي هي منبع الألحان للملحنين والموسيقيين وتكونت المدارس اللحنية الموسيقية خلقت قبل أن يخلق علم الموسيقى.

الموسيقى العربية موسيقى متنوعة ولديها تاريخ طويل من التفاعل مع العديد من الأنماط الموسيقية في الأقاليم الأخرى والأنواع، وهي مزيج من موسيقى شعوب العالم العربي اليوم كما في المجالات الفنية الأخرى. كما أن العرب ترجموا وطوروا النصوص والأعمال الموسيقية الإغريقية وأتقنوا النظريات الموسيقية الإغريقية وتجاهلوا تدوين موسيقاهم مما أفقدنا الكثير من الألحان القديمة في وطننا العربي وإبداعاته.

تكونت العديد من المدارس اللحنية في وطننا العربي وتحديداً مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي منها ما هو مشهور ومنها دون ذلك، وكانت المدرسة اللحنية في مصر آنذاك هي المتطورة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خصوصاً في عهد الخديوي إسماعيل الذي كلف الموسيقار الإيطالي فردي

بتأليف أوبرا عايدة وبناء دار الأوبرا المصرية بمناسبة افتتاح قناة السويس.
واحتضن الخديوي عبده الحامولي الذي كان يغني في القصر. ومن تلامذة عبده الحامولي برز يوسف المنيلاوي، وصالح عبدالحي والشيخ سلامة حجازي وسيد درويش. ثم تطورت الموسيقى المصرية والعربية سريعاً باستبدال التخت بالأوركسترا وإدخال آلات أوروبية لم تكن معروفة لدى المصريين والعرب، منها الكمان والكونترباص والبيانو وغيرها. ومن الأساتذة الذين خاضوا مضمار التطوير في مطلع القرن العشرين الموسيقار الكبير محمد القصبجي الذي تميزت ألحانه بالحداثة، وتتلمذ على يديه الكثير من الملحنين الكبار منهم الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب الذي تأثر بالألحان الغربية واستخدمها بل وأضاف لها من إبداعه النفس العربي، وتأثر بأستاذه الموسيقار الكبير محمد القصبجي، وكذلك الأستاذ رياض السنباطي الذي كون لنفسه مدرسة لحنية ذات طابع فلسفي وصوفي، حيث ابتكر هو والشيخ زكريا أحمد الأغنية المطولة. وهناك العديد من المبدعين في هذا المجال كالأستاذ الموسيقار الكبير فريد الأطرش، ومحمد فوزي، وبليغ حمدي.
تكونت مدارس لحنية في مناطق مختلفة من الوطن العربي متأثرة بالمدرسة اللحنية المصرية في عهدها الذهبي، فعلى سبيل المثال في المملكة العربية السعودية لدينا ملحنون تركوا بصمة واضحة مثل الأستاذ سراج عمر، وطلال مداح، وغيرهم الكثير المتميزين في منطقة الخليج مثل عوض الدوخي، وخالد الشيخ.
من هنا نكتشف أن الوطن العربي كان مهتماً بقالب الأغنية فقط، ولم يهتم بالقوالب الأخرى الموسيقية كقالب السماعي واللونغة والبلشرف والسيرتو وغيرها من القوالب التي هي قوالب موسيقية بحتة لها قوانينها وأسلوبها وأزمنتها. كما اهتم بها بعض من الموسيقيين الكبار مثل القصبجي والسنباطي وغيرهم.
كما أن هناك في وطننا العربي العديد من المدارس الموسيقية في العزف على آلة العود، كالمدرسة الشرقية الطربية، والمدرسة العراقية -مدرسة الشريف محي الدين حيدر- من حيث نشأتها وأشهر روادها وأعمالهم الفنية وطابعها العام وأسلوبها في العزف من حيث الريشة وعفق الأصابع، واستخدام المساحات الصوتية لهذه الآلة، وهي أهم مدرسة عزفية جردت العود من كونه خلف المغني إلى آلة موسيقية مجردة تغني بذاتها، والمدرسة الحديثة في العزف على آلة العود ابتكرها الشريف محي الدين حيدر، كما أنها تحظى باهتمام المتذوقين من مختلف أنحاء العالم، ويرجع ذلك إلى اعتمادها في أغلب الأحيان على الأداء الفردي على آلة العود، ما يجعل عازفي هذه المدرسة يحاولون دائماً الوصول لأفضل مهارات تكنيكية وأوضاع مختلفة تكون دائماً محط أنظار الآخرين.
كما نلاحظ في وقتنا الراهن قصر قالب الأغنية وانحسار المقدمات الموسيقية الطويلة التي كانت تتميز بها الأغنية الشرقية في القرن الماضي. ومع ذلك نرى انتشاراً لسماع الموسيقى المجردة، كموسيقى بيتهوفن، وموتزارت وبعض موسيقى الشعوب المجردة من الكلام، وكذلك لاحظنا ظهور موسيقيين يؤلفون الموسيقى بتوزيع موسيقي حديث وجميل كالأستاذ عمر خيرت، والأستاذ ياسر عبدالرحمن، والأستاذ سالم

عبدالكريم، والموسيقار خالد محمد علي، وغيرهم من المهتمين بالتأليف الموسيقي، كالأستاذ جميل بشير، ومنير بشير، وبعض الموسيقيين من المغرب العربي.

لعب العامل الثقافي في صقل مواهب الأجيال جيلاً بعد جيل، إضافة إلى التبادل المعرفي والفني، فهي كما يقول أرسطو ربة التهذيب والذوق والجمال، هي لغة النفس والعاطفة، ساعة الفرح أو الحزن تعتمد التلميحات الملزمة ثقافياً على معرفة الأعراف في تقليد موسيقي معين. قال علماء الموسيقى العرفية إن هنالك حالات معينة قد تُغنى فيها الأغنية في ثقافات مختلفة. تميز هذه الحالات من خلال التلميحات الثقافية ومن خلال شعب تلك الثقافة. قد يُفسر طابع صوتي ما بتمثيله لعاطفة ما من قبل المستمعين الغربيين وعاطفة أخرى من قبل المستمعين الشرقيين. قد يكون هنالك تلميحات ملزمة ثقافياً وأخرى كذلك.